أسئلة الذاكرة ومحاكمة التاريخ في رواية "طير الليل" لعمارة لخوص

Memory questions and history trial in AmmaraLakhous's novel "Tayr Al-Layl" (Bird Of The Night)

ط. د حني سيف الدين♣

إشراف: أ. د بن بوعزيز وحيد*

تاريخ الإرسال: 2022/06/29	تاريخ القبول: 2022/09/01	تاريخ النشر: 2023/05/10

الملخص:

تسعى هذه الورقة إلى تحديد وتحليل العلاقة المتواجدة بين التاريخ بوصفه مرجعاً والرواية باعتبارها نظاما خيالياً، لأن في كثير من الأحيان اعتبرت الرواية إحدى الأجناس الأدبية التي استطاعت تصوير التاريخ بشيء من التفصيل والصدق. فالرواية التي تحاور التاريخ، رواية تحاول إثارة الحاضر استنادا إلى ما حدث في الماضي على حد تعبير جورج لوكاتش، وذلك بغية تفادي تكرار أخطاء الماضي وإرادة تحرير التاريخ من ربقة النظرة الرسمية.

ولعل المتون الجزائرية نسجت هي الأخرى هذه الروح، بإعادة كتابة تاريخها واستعادة روحها وذاكرتها الوطنية بأحداثها وأبطالها، من هنا وقع اختيارنا بأخذ عينة منه، متمثلة في كتابة الروائي "عمارة لخوص"، وبالتحديد عمله الموسوم ب "طير الليل"، إذ لا يكاد هذا العمل يتحرر هو الآخر من أسئلة الذاكرة ومساءلة التاريخ وإعادة قراءته قراءة متشككة، تستدعي فيه المهمش والمسكوت عنه واللامفكر فيه.

الكلمات المفتاحية: التاريخ، الذاكرة السياسية، الماضي، محكي التاريخ، الهوية.

♣ جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله seifhanni91@gmail.com

*جامعة الجزائر-2- أبو القاسم سعد الله benbouaziz2001@yahoo.fr

Abstract:

This paper seeks to define and analyze the relationship that exists between history as a reference and the novel as an imaginary system, because in many cases the novel is considered one of the literary genres that were able to depict history with some detail and truth., as a novel that discusses history is a novel that tries to evoke the present based on what happened in the past, in the words of George Lukac. This is in order to avoid repeating the mistakes of the past and the will to liberate history from the official view. And perhaps the Algerian texts (Mottoun in Arabic) have also woven this spirit by rewriting its history and restoring its spirit and national memory with its events and heroes. From here, we chose to take a sample from it, represented in the writings of the novelist AmmaraLakhous, specifically his work marked "Tayr Al-Layl" (Bird Of The Night), as this work is rich in memory and history questioning, it reads history in a skeptical manner that calls for the marginalized, forgotten and the abandoned one.

Key words:*History, Political Memory, The Past, Identity, Narrated History.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: حني سيف الدين *seifhanni91@gmail.com*

مقدمة:

اتجهت الرواية الجزائرية الى معاودة التأمل والتفكير في مراحل تاريخية مختلفة بدء بمرحلة الاستعمار وصولاً عند مرحلة العشرية السوداء ومرورًا بفترة ما بعد الاستقلال، ببناء سردي متماسك يطفح بالصور المضادة، واللجوء الى تكثيف النقد والسخرية من الماضي من أجل قراءة الحاضر أو الراهن، من هنا كان على الكتابة والتحديد الرواية أن تخصص شقًا كبيرًا للتعبير عن مختلف أشكال الصراع الاجتماعي والسياسي والتاريخي والثقافي، وعن العلاقة بين احتكارات السلطة وفسادها، كما اهتم النص الروائي الجزائري بوسائل التعبير التي تتشيد فيها هذه الرؤى الجديدة، أما

الاهتمام الموسع بالثقافة، والاستغلال جماليًا على التاريخ وفق قراءات متعددة واجتهادات متغيرة للذي شاهدناه في النصوص الروائية السابقة، ورواية طير الليل لعمارة لخوص تسعى هي الأخرى الى الاقتراب من القضايا الثقافية المتنوعة، والتي تتصل بالتاريخ والذاكرة والهوية وثانيًا الأنا والآخر في سياق ما بعد كولونيالي، ويرجع سبب اختيارنا لهذا العمل دون غيره كموضوع للقراءة والتحليل، بحكم تحيزها بوصفهما جنسًا أدبيًا يمتزج فيه الخيالي بالواقعي والتخيلي بالتاريخي وهي الأسباب التي اختبرنا للإجابة عنها السير وفق أسئلة معالم هي على النحو التالي:

- لماذا العودة الى الماضي؟ وبالتحديد أسئلة الثورة وما بعدها؟
- ما الفائدة من نبش الماضي ومحاكمة التاريخ؟

2. الذاكرة والرواية، أية علاقة؟

تعتبر الرواية من بين الأجناس الأدبية المعبرة عن تعقيد الذاكرة، وأسئلتها الإشكالية المختلفة، على غرار الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والسيرة الذاتية، وبالتالي فإنها أكثر الأجناس الأدبية قدرة على التعبير عن سؤال الذاكرة وتعالقاتها في ثنايا النص الأدبي، ولكن ما هي الطريقة التي يستعملها الروائي انطلاقًا من نصه الروائي لبناء عالمه الذاكراتي؟ أو بعبارة أخرى كيف يستطيع الروائي انطلاقًا من الرواية باعتبارها جنسًا أدبيًا تخييليًا بناء عالمها الذاكراتي؟ وهو ما حاول الباحث المغربي عبد الرحيم جيران بسؤال لا يكاد يبتعد عن الأسئلة المطروحة وهو ما جمعه في سؤال مفاده: كيف تستثمر ممكنات الأدب والتخييل لبناء عالمها الروائي؟

وحتى يتم الفصل والحسم في فهم العلاقة المرتبطة بين الرواية والذاكرة وجب أولاً فهم الذاكرة من داخل الجنس الروائي، إذ تكاد الرواية "تعد الجنس الأدبي الأمثل - من بين الخطابات الذاكراتية - في التدليل على انفتاح التخييل على شؤون الذاكرة

وإشكالاتها وتعقيداتها، بل لربما جعلت منها مكونًا أساسيًا من بين المكونات المركزية التي تساهم في تكوين شكلها"[1]ومن هنا يقدم الباحث عبد الرحيم جيران شرطان مهمان لفهم هذه العلاقة وهما:

1. شرط عدم اتصال الموضوع بحياة الكاتب الخاصة الفردية

2. وشرط ألا يعني عدم التعبير السردي بواسطة ضمير المتكلم الحكم على الرواية بكونها غير معنية بالذاكرة.[2]

ولا يكاد هذان الشرطان ينفصلان عن الرواية، وهو في الحقيقة استخدام فني جمالي وارد في العديد من الروايات والأمثلة الدالة على ذلك لا حصر لها، وعودة الروائيين إلى الذاكرةوبالتحديد طريقة انتقائهما لبناء موضوعهما الجمالي الروائي، هي عودة اعتمدت فيها وسائل محددة من قبيل "اعتماد السرد بواسطة ضمير المتكلم، والتوسل بأسلوب المذكرات، واتخاذ لحظة محددة في الحاضر تكون مرجعًا زمنيًا يتم بموجب تنظيم العودة إلى الماضي،واستعمال عبارات رابطة دالة على فعلي الاستذكار أوالتذكر أو دالة على المعوقات التي تمنع من استعادة الماضي على نحو صاف، ومتحكمات عاطفية، يمرر من خلالها الخطاب السردي، كأن تطول استرجاع الماضي مسحة من التقويم الدال على النوستالجيا (الحنين) أو الأسى، أو الندم (الناجم عن الشعور بالذنب)...إلخ" [3]. مما يعكس الوجه الوسائلي الذي تعتمده الرواية لبناء موضوعها الروائي، في حين يتمثل الوجه الثاني في الوجه الموضوعاتي؛ إذ تكون الذاكرة في هذه الحالة موضوعًا للسرد، ولا نقصد هنا الذاكرة باعتبارها معرفة من المعارف التحليلية كالفلسفة وعلم النفس، وإنما باعتبارها موضوعًا أدبيًا ماثلاً في فهم ما حدث على المستوى الشخصي أو الجماعي.

من هنا يتأكد لنا أن علاقة الرواية بالذاكرة مرتبطة بوجهين مهمين في فهم هذه العلاقة فالوجه الأول، هو وجه وسائليتم فيه الاعتماد بشكل كبير على مجموعة من

الأدوات والوسائل المختلفة كالمذكرات والشهادات والمتحكمات العاطفيةمن أجل التعبير، ووجه ثاني وهو الوجه الموضوعاتي والذي تكون فيه الذاكرة كما سبق وذكرنا موضوعًا للسرد، إذ تحاول فيه إبراز وفهم الأحداث والوقائع التي حصلت ذات مرة في التاريخ الشخصي أوالجماعي، إلى جانب إجراء التراوح الزماني بينالماضي والحاضر أو الحاضر والماضي.

3. الذاكرة السياسية والجرح التاريخي:

يعد الجانب السياسي من أبرز الجوانب التي حاولت رواية طير الليل تأطيرهوالكشفعن صيرورة أحداثه، فجاءت باحثةً عن إجابات لكثير من الأسئلة العالقة في ذهن الفرد الجزائري، فتثبت وتصرح تارة وتلمح وتسكت عما وقع تاريخيًا من مواقف سياسيةً تارةً أخرى، وهي مواقف في حقيقة الأمر كان لها أثر بليغ في مسار التاريخالجزائري الحديث، لأن الرواية قيد الدراسة ليست معنية بكتابة التفاصيل التاريخية من أجل إسناد القراءة المرجعية، بقدر ما هي معنية بخلق واقع خاص يقوم على أولا مبدأ التقابل بين الماضي والحاضر، ومن ثم واقع يقوم أساسًا على المقارنة بين تجربة العصر الذي عاشه المجتمع الجزائري فترة الاستعمار وما بعد الاستعمار والزمن الراهن المثقل بالانكسارات والإخفاقات ثانيًا.

وقد سعت رواية طير الليل إلى سرد ثقافة الذاكرة السياسية، وذلك بغية ترسيخها في أذهان الجيل الجديد الذي لم يعش سنوات الحرقة والجمر، انطلاقا من إعادة صوغ الأسئلة العميقة والمرتبطة بالعنف السياسي، من هنا يمكن أن نعتبر الذاكرةالسياسية أحد علامات التاريخ الراهن، خصوصًاأن العنف السياسي الذي تمارسه الدول ضد معارضي سياستها خلال مرحلة ما بعد الاستقلال، وهذا باحتفائها "بشبكة من الصور والأحداث والوقائع لتلتقط ما تعرض له أفراد أو جماعات من أبشع أنواع القمع الشديد خلال العقود الماضية"[4].

والقارئ للتاريخ أولاً وللرواية ثانيًا يرى بأن التاريخ البشري قد امتلأ بأشكال الصراع والتنازع والمجابهات والحروب بين الأفراد مع بعضهم من جهة وبين الجماعات والقبائل من جهة أخرى، ولا يزال هذا العنف مستمرًا حتى اليوم، وما أسطورة الاحتلال الدامي بين قابيل وهابيل إلا رمزا للصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل، ولعل هذا ما جعل شخصية الأستاذ روندو تؤكد على أن الجزائر "صارت فردوس قابيل"[5]، وكأن الروائي يؤكد على قضية قتل الإنسان لأخيه الإنسان متوارثة من فكرة الخليقة الأولى، فالعنف في هذه الحالة ظاهرة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ حتى تصل إلى حادثة بدء الإنسان على وقع الأرض، ولم يكتف الروائي عمارة لخوص بهذه الفكرة وإنما أكد على لسان شخصية العقيد كريم سلطاني أن مصدر العنف في الجزائر سببه الاستعمار لا غير "عنف الاستعمار هو المتسبب الوحيد في أشكال العنف الأخرى كلها، بما فيها عنف الجزائري ضد أخيه. المصائب كلها مصدرها واحد هو الاستعمار"[6]. وهو استنتاج في حقيقة الأمر استنتجه العقيد انطلاقًا من حوار أجراه مع شخصية المجاهد السابق إدريس طالبي، مما يعكس رؤيته المختلفة لما صدر عن روايات المجاهدين الآخرين وما تم تداوله في التاريخ الرسمي.

استنادًا إلى هذه المقاطع ومقاطع أخرى، حاول نص طير الليل أن يجد تفسيرًا واضحًا للعنف الذي شهدته جزائر ما بعد الاستقلال والكشف العاري عن الدور القمعي لدولة ما بعد الاستقلال بتسليط الضوء على ما تعرض له فاعلون مثقفون ونشطاء من اعتقال وتعذيب وإهدار للكرامة والشرف، وهذا ما أكده الباحث وحيد بن بوعزيز في كتابه جدل الثقافة من خلال قراءته لكتاب فرانز فانون (**Frantz Fanon**) (معذبو الأرض) وعقده مقارنة بينه وبين هيغل، ليخرج بنتيجة مفادها أن فانون قد اقتنع بأن العلاقة الموجودة بين المستعمِر والمستعمَر تختلف جوهريًا عن علاقة العبد والسيد، فإذا كانت العلاقة الأخيرة في نظره تجعل العامل يتحرر تمامًا من هيئة ونفسانية ووجودية ومادية السيد، فإن المستعمَر لا يتحرر من أنطولوجيا المستعمِر وعقله

الإمبريالي، بل يأخذ مكانه وصفاته، ويضيف الباحث ذاته بأن فانون في هذه الحالة تكهن بأن الطبقة الوسطى في الأهالي ستعيد بعد الاستقلال إنتاج التوزيع نفسه والاستعبادية نفسها التي كانت سائدة في زمن المعمِرين، ويرجع ذلك إلى انعدام البديل وانحلال الشخصية القائمة على فكرة أن الآخر أو الأبيض أو المعمّر إطار مرجعي غير قابل للمساءلة والتفكك[7] مما جعل شخصية عباس بادي تتساءل حول طبيعة هذا الحكم، ونقصد هنا حكم ما بعد الاستقلال "هل تحول الحكام الجدد إلى مستعمرين جدد؟ هل صاروا ينافسونهم في البطش والقهر والاضطهاد والتعذيب؟"[8]، بل والأخطر من ذلك جعل البعض يشكك حتى في استقلال الجزائر "الجزائر لم تستقل أبدا، ما تزال اليوم مستعمرة، رحل المستعمرون الأجانب وحل محلهم أبناء جلدتنا، يا حضرات"[9].

والروائي في هذه الحالة حمّل الشخصية المثقفة مسؤولية نقل هذه الرسائل أوالتعابيرالرمزية حتى يتجنب مواجهته المباشرة مع حراس المؤسسة السياسية، لأنه بقدر ما حاول أن يسائل الذاكرة بقدر ما حاول في الوقت نفسه أن يسرد الجرح التاريخي الذي لا يزال عالقًا في أذهان كل فرد جزائري لأنه –أي الجرح التاريخي-"ينماز بخصوصية تتمثل في كونه حدثًا مؤطرًا زمنيًا بمعنى أنه يرتبط بزمان ومكان محدّدين وليس العالم كلّه موضوعًا له"[10]. ومن هنا لم يكن غاية النص الروائي الانشغال بالتاريخ الراهن بقدر ما كانت الغاية منه استبطان التأملات والتناقضات والتطلعات التي تنطوي عليها الأحداث والوقائع والشخصيات الفاعلة في فضاءات النص، محاولة منها تمثيل الأحداث التي تتسم بالعتمة والقسوة والقتامة، لذا نجد النص يركز في بعض مقاطعه على ما حصل عقب الاستقلال من أخطاء وتعثرات، والتي تجسدت مثلا فيما قام به مجاهدو ما بعد الاستقلال من أخطاء وتناقضات، وعبّرهذا صراع الأفكار بين شخصيات الرواية و استطاع الروائي عمارة لخوص أن يركز على فترة من الفترات التاريخية التي مرت بها الجزائر الحديثة، وبالتحديد ما قام به بومدين من انقلاب تاركًا في الوقت نفسه

للشخصيات الروائية حرية التعبير عن رأيها،هذا ما جعل شخصية إدريس طالبي في قرارة نفسه يعتبر أن "التصحيح الثوري الذي نادى به العقيد بومدين هو ذر للرماد في العيون، فهدفه ليس حماية الثورة والدفاع عن مصالح الشعب، ولكن الإمساك بزمام الحكم والتخلص من غريمه بن بلة"[11].

فالغرض مما حدث في هذه الفترة بالتحديد – أي عقب الاستقلال – في نظر الروائي ما هو إلا صراع أشقاء الأمس من أجل الوصول إلى السلطة أو الحكم لا غير ، مما سيتسبب في نشوء دولة تعمها الفوضى والعنف واللامساواة ، وبالتالي نشوء دولة غير مستقرة أمنيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا"لا يمكن لأي دولة أن تزدهر وتستقر في ظل تدخل العسكر في الحياة السياسية، فالانقلاب العسكري بطبيعته يقوض المشاريع كلها لبناء دولة متماسكة"[12] .فهل يمكن أن نعتبر انطلاقا من هذا المقطع أنه لا يمكن للسياسة أن تحقق أهدافها دون استعمال العنف؟وبالتالي لا يمكن فصل العنف عن السياسة؟لأن وفي وجهة نظر حنة أرندت (**Hannah Arendt**) فإن كل "سياسة إنما هي صراع من أجل السلطة، والعنف إنما هو أقصى درجات السلطة ليصبح العنف في هذه الحالة مشروع"[13]. وتركيز عمارة لخوص انطلاقا من المقطع السابق على الشخصية التاريخية لبومدين هو في حقيقته تركيز على شخصيته كفاعل سلبي في فترة جزائر ما بعد الاستقلال، لأنهوفي نظر الروائي أن الشخصية سعت إلى قمع ومواصلة تخريب ما تم تخريبه من طرف الاستعمار، مما يؤكد انطلاقًا من شخصيته أن السلطة لا تقوم لها قائمة دون اللجوء إلى ممارسة القيادة، ذلك أن "جوهر السلطة ممارسة القيادة، من الواضح أن ليس ثمة سلطة أكبر من تلك التي تنبعث من فوهة البندقية"[14]. ليتجلى بوضوح أن شخصية بومدين غرضها من الإنقلاب ممارسة السلطة والانفراد بها، مما يجسد الغاية التي يسعى إليها معظم المجاهدين عقب الاستقلالوهي اللهث وراء الحكم وبالتالي إخضاع الناس للطاعة العمياء، لتصبح هذه الأفعال بالإضافة إلى فعل التصحيح الثوري الذي نادى به بومدين هو دكتاتورية عسكرية في نظر شخصيات

الرواية، لأن الغاية التي سعى إليها هي غاية مصلحية لا غير، أي الوصول إلى السلطة أو الحكم، ولكن هل تم حقيقة المحافظة على الاستقلال انطلاقًا مما قام به بومدين محاولة منه أن ما قام به هو تصحيح ثوري لا غير، لأن الأمر لا يتعلق بالتصحيح بقدر ما يتعلق بالكيفية التي يمكن من خلالها المحافظة على الاستقلال، من هنا نجد فانون "لا يتوقف عند الحدود النظرية الثورية والتحررية، بل راح ينظر بعد الاستقلال لأنه كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن نجاح وعبقرية الثورة لا يكمنان فقط في طرد المستعمِر من الأرض، ولكن يكمنان جوهريا في الحفاظ على هذا الاستقلال"[15].

بعد عرضنا للمقاطع السردية السابقة، يمكننا القول بأن النص الروائي قيد الدراسة قد أبان عن مشاهد النقد الجذري للتحولات الصعبة التي عرفتها جزائر ما بعد الاستقلال، حينما إنقاد بعض رموز النضال الوطني للبحث عن مصالحهم الخاصة، مما سمح لهم بتغيير جلدهم إن صح التعبير والانخراط في مسلسل الانقلاب ليعكس عدم استقرار هذه المرحلة التاريخية (مرحلة ما بعد الاستقلال).

4. الرواية بين التاريخ الرسمي ومحكي التاريخ:

في كثير من الأحيان تسعى بعض النصوص السردية الإبداعية العودة إلىالتاريخ ومرجعياته، محاولة منها استرجاع بعض حقائقه وصيرورته الموضوعية وحتى أحداثه وتطوراته، بالتطرق إلى ما سكت عنه تاريخ الكتب التاريخية بقصد أو بغير قصد لأن في "التاريخ الرسمي تخضع الهوامش لسلطة المركز سواء في الماضي أو الحاضر فتكون السيادة والقيادة للمركز في حين يكون الرضوخ والانقياد من نصيب المهمش. بينما يتبدل الحال مع محكي التاريخ إذ تتسرد الهوامش ومكانتها متغلبة على المراكز التي ستتفتت بسبب طغيانها وأساليبها المتمثلة في القمع والاغتصاب والوشاية والخيانة والعقاب والسجن والاغتيال والجنون والنكث بالعهود[16].

1.4 الكتابة ضد التاريخ:

عملت رواية طير الليل على تعرية المسكوت عنه في التاريخ الرسمي الجزائري منطلقة من أحداث جزئية تم إغفالها عن قصد أو عن غير قصد، وذلك عن طريق البحث عن حلول وإجابات لأسئلة ثقافية لطالما استفزت ولا تزال تستفز الفرد الجزائري وتصدمه بقصدية التفكير، إذ ترك الروائي أمر الحسم في الأحداث التاريخية فيه إلى النسق التأويلي للقارئ ووضعه في حالة شك دائم اتجاه ما يقرأ، مما يبعد الشبهة عن الذات المؤلفة، وذلك بإسناد ذاكرته إلى غيره، وبالتحديد إلى الشخصيات الروائية المتخيلة في أنماط السرد المختلفة حتى تعبر هي الأخرى عنهاوتقدمها إلى القارئ بصورة نهائية، مما يترك بطريقة أو بأخرى باب الشك مفتوحًا أمام تعدد الاحتمالات من دون الحسم فيها، كأن يتحدث الروائي عن قضية منظمة الجيش السري، التي تأسست عام1961، محاولة منها الانتقام من الأفراد الذين يرفضون بقاء الجزائر في حضن فرنسا أو بعبارة أخرى الجزائر باعتبارها جزء لا يتجزأ من فرنسا، إذا لم يكن الهدف الأسمى لهذه المنظمة إلاّ"خلق حالة من الفوضى العامة من أجل إخفاق اتفاقيات إيفيان التي وضعت حدا للحرب، وبالتالي إجبار الجيش الفرنسي على التدخل، لكن الجنرال ديغول كان مصمِّمًا كل التصميم على إنهاء الحرب ومنح الجزائر استقلالها[17]. وكأن لسان حال الروائي يقول: هل حقًا منح للجزائر استقلالها؟ ولماذا أخفقت اتفاقيات إيفيان؟ وهل هي دعوة من الروائي إلى إعادة إنطاق هذا النص التاريخي؟ لأن اتفاقيةايفيان وحسب ما ترويه كتب التاريخ أبرمت يوم 18 مارس 1962الرامية إلى وقف إطلاق النار والإصرار على حق تقرير المصير، ضف إلى ذلك تلك الاتفاقيات الحاصلة على مجموعة من الامتيازات الفرنسية داخل الجزائر وهي اتفاقية في حقيقة الأمر تحمل في طياتها الكثير من الاختلافات والروايات خاصة فيما يتعلق ببعض التسهيلات والتنازلات، من هنا جاء تلميح الكاتب بالإشارة إلى الاتفاقية فقط، وليترك

أمر البحث للقارئ، حتى يتسنى له تفحص هذه الوثيقة والتي تم إسكاتها نفيًا أو استبعادًا.

زيادة على هذا حاول الروائي في مقاطع أخرى أن يفضح الثورة من الداخل وذلك عن طريق أحد شهود الثورة التحريرية وهو المجاهد عباس بادي الذي طرح قضية الثوار الذين يشتغلون داخل الوطن وخارجه، مما يعكس الاختلافات المتواجدة بين هؤلاء الثوار، إذ "راح يصف الحالة المزرية التي ألمت بجنود جيش التحرير المتواجدين داخل التراب الوطني، بسبب نقص المؤونة والعتاد، بينما وقف جيش الحدود والقيادات العسكرية والسياسية يتفرجون ويتخاصمون فيما بينهم، وينعمون بالخيرات في الخارج"[18]، فلقد استغل عباس بادي فكرة وجود ميلود صبري بالمغرب من أجل طرح هذه القضية عندما التحق أي ميلود صبري وانضم إلى النواة الأولى للاستخبارات الجزائرية، وبالتحديد انضمامه إلى صفوف رجال عبد الحفيظ بوصوف، مما يعكس قضية الداخل والخارج، التي تؤكد في الوقت نفسه أسبقية الداخل على الخارج أو العكس، ففي نظر عباس بادي أن حق الثورة يأتي من الداخل وليس العكس وكأن لسان حاله يقول من له أسبقية الدفاع عن وطنه؟ من هو بالداخل أم بالخارج؟ فقد حاول انطلاقا من تصريح عباس بادي باعتباره مجاهد سابق استفزاز الذاكرة التاريخية بأصوات أصحابها، لأن مهمة كل ثوري أن يصنع ثورة لا ثروة من هنا كان "واجب كل ثوري هو صنع الثورة"[19]. لم يكتف الروائي عمارة لخوص بوصف ما حدث في الثورة من تناقضات بل ذهب إلى أبعد من ذلك، عندما حاول فضح وتعرية الوضع الجزائري من الداخل، انطلاقًا من فضحه للنقد الجذري للتحولات الصعبة التي عرفتها جزائر ما بعد الاستقلال، حينما انقادَ بعض رموز النضال الوطني للبحث عن مصالحهم الخاصة، مما سمح لهم بتغيير جلدهم والانخراط في مسلسل النهب المنتظم لثروات البلاد وكذا تصفية الحسابات التي وصلت إلى حد الاغتيالات، فالذي يراهم لا يكاد يصدق أنهم

شاركوا في تلك المقاومة التي أجبرت المستعمِر في يوم من الأيام على الخروج من أرض الجزائر، وقد تجسد هذا عبر شخصية المحامي إدريس طالبي، حينما حدّد الفرق بين الأشخاص الذين قاموا بخدمة الوطن وبالتالي حاربوا الاستعمار حق المحاربة وبين الذين خانوا الوطن وبالتالي خانوا الثورة،وحتى يحدد الفرق بين هذين الصفتين، شبه الفرق بين المجاهدين الحقيقيين والأشخاص الخائنين أمثال ميلود صبري كالفرق بين المجاهد والمرتزق، لأنه وفي وجهة نظر إدريس طالبي "النوع الأول حارب الاستعمار حتى يتحرر وطنه، ثم عمل ولا يزال يعمل ليبني البلد، أما النوع الثاني، فاستغل الثورة لخلق الثروة، هؤلاء لم يهتموا يوما بمصلحة الجزائر"[20] وعبر هذا التشبيه يؤكد الروائي عبر شخصية إدريس طالبي أن غاية بعض المجاهدين عقب الاستقلال هو اللهث وراء الاغتناء وتملق الحكم لتحقيق أغراضهم، رغم أنه من مهمة الثوار باعتبارهم رموزا نضالية، هدفهم الأسمى المحافظة على أبجديات الثورة وهيبتها من أجل بناء جزائر قوية ما بعد الاستقلال، دولة ذات دعائم صلبة ومبادئ تاريخية ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص، ولكن نص الروائي قيد الدراسة أبان عكس ما كتبه التاريخ الرسمي بتمجيده وتقديسه لبعض الشخصيات التاريخية، وحتى يفر الروائي من مسؤولية تحمل هذه الفكرة جسدها عبر شخصية ميلود صبري، مما يعكس تناقض هذه الشخصية في حد ذاتها، فبعدما كان بطلا من أبطال الثورة التحريرية، وأحد رموزها البارزين من أجل أن ينعم بلده الجزائر بالحرّية والاستقلال، ها هو يفني عمره ثانية ولكن هذه المرة في هدمها وليس ببنائها بسبب أفعاله وأخلاقه الحاقدة مستندا ومستعينا في الوقت نفسه على سمعته وعلاقاته التي اكتسبها بسبب استغلاله الشرعية الثورية من أجل بث السلطة واستغلال الثروات، فهاهي شخصية سمير ملازم العقيد سلطاني تكشف عن سرِّ ميلود وتورطه في قضايا فساد تحت شرعية الخيريةأو بعبارة تحت شعار استغلال ذريعة الجانب الإنساني لتحقيق مصالحه الشخصية "ذلك أن سمير اطلع على ملفّ سرّي للغاية، يتناول علاقة ميلود صبري بجماعة إرهابية في ليبيا بعد سقوط نظام

القذافي، شرع المرحوم في نسج شبكة من العلاقات، واستطاع كسب ودِ شيوخ بعض القبائل عن طريق إمدادهم بالسلاح مستعملاً جمعية خيرية إنسانية غطاءً قانونيًا لأنشطته. لم تكن ليبيا الغاية النهائية، بل بوابة للنفاذ إلى سائر الدول المجاورة كتونس ومصر ومالي والنيجر"[21] فإذا كان الاستعمار في بداية عهده قد استعمل الأسلحة الفتاكة. بقصد إخضاع المغلوب، فقد استعملت في جزائر ما بعد الاستقلال الخبث والغدر والكذب بغية تحقيق المصالح والثروات وجمع ما تيسر له من الرزق بحكم أنهم يستحقونه جراء تضحيتهم. من هنا يرى مصطفى الأشرف أن التضخم البطولي الذي استفحل أمره حتى غمر كل شيء، أراد أن ينال المكافأة المنشودة،والأجرالرخيص، متنكرا بذلك لروح التضحية والفداء، لذا لا يتردد مصطفى الأشرف في مصارحة بعض الضالين الذين نسوا بعدما أدوا واجبهم إيمانًا واحتسابًا في ميادين الكفاح، وتعذبوا مع الشعب، نسوا بعد إعلان وقف إطلاق النار بأن "بطولاتهم" لا يستحقون عليها أية مكافأة، وما كان ينبغي أن تجعلهم يتصرفون في بلادهم كالغزاة، بفرض الإتاوات على الناس ظلمًا وعدوانًا وإهانتهم ومصادرة أموالهم والنيل من كرامتهم[22].

فالقارئ المتأمل للمقطع السابق يتأكد من دور السرد الذي لا يتوقف عند حدود بناء هوية البطل الثوري، بمواصفات المدافع عن الثورة وقيمتها، ولكنه في الوقت نفسه يبني أيضا سردية الثوري النضالي القامع والظالم لتغدو شخصية ميلود صبري أحد هذه الرموز لتصبح في الوقت نفسه صورة للشر المطلق..

2.4 النسق الثقافي لاسم هواري بومدين:

يعد الاسم من بين العوامل المحددة لهوية الأشخاص، فهو الذي يتصدر الوثائق الرسمية التي تعرف الشخصية في وثيقة الحالة المدنية مثلا أو بطاقة التعريف الوطنية فالاسم علامة ثقافية تحيل إلى هوية ثقافية لجماعة بشرية[23]، وقد سعى نص طير الليل إلى تجسيد فكرة الهوية المنغلقة على ذاتها، وهي الهوية التي لا تتقبل ما يقدمه الآخر

بديلاً وعلى كل المستويات والجوانب فتنكفئ على ذاتها وتتغنى بفرادتها، وهو التغني الذي ينشأ عنه خطاب دوغمائي لا يؤمن إلا بالذات وبحدودها المغلقة [24]، وهذا ما جسدته شخصية المجاهد إدريس طالبي، والذي يواصل عداءه اتجاه ما حدث عقب الاستقلال وبالتحديد زمن الانقلاب الذي أحدثه العقيد هواري بومدين، ولكن هذه المرة لا ينكر عدم ارتياحه لاسم العقيد في حد ذاته، ويرجع سبب ذلك إلى تخلي هذا الأخير –أي هواري بومدين– عن اسمه الأصلي، وتعلقه باسم يجمع في نظر إدريس طالبي بين اسمين لوليّين صالحين، مما زرع في نفسيته الشك حول طبيعة هذا الاسم، بحيث تصبح ذات إدريس في هذه الحالة لا ترى في شخصية الآخر (هواري بومدين) إلاّ الصورة غير مرغوبة، لتغدو الهوية في هذه الحالة فضاء للصراع السياسي داخل المجتمع الواحد،وحتى يعيد الروائي رسم شخصية بومدين راح يصوغ مجموعة من الأسئلة الثقافية المشككة في هويته "وقال إدريس أيضا أنه غير مرتاح للعقيد، لسبب آخر يتعلق باسمه الحركي: هواري بومدين، العيب ليس في التخلّي عن اسمه الأصلي محمد بوخروبة، ولكن في جمعه لوليّين صالحين، هما سيدي الهواري وسيدي بومدين.

- هل يريد أن يقدسه الجزائريون؟ هل يسعى أن يكون حاكمًا أم وليًا من أولياء الله الصالحين؟ هل يريد أن يجعل من الجزائر دولة-لا تزول بزوال الرجال كما يقول– أم زاوية للزوار وطلاب البركة وكرامات الصالحين؟ لماذا الخلط بين التدين والسياسة؟ قال إدريس غاضبا"[25].

عمد الروائي في هذا المقطع بالتحديد الأخذ بالتاريخ ولكن دون أن ينتمي إليه تاركًا في الوقت نفسه التأويل للقارئ –عبر الأسئلة الثقافية- حتى يحدد مواقع الحسن والقبح في تاريخ شخصية هواري بومدين، لتصبح غاية هذا المقطع إعادة القارئ قراءة التاريخ من زاوية أخرى، زاوية تتعلق بالتفحص والتشكيك في ماضي هذه الشخصية، حتى ينزع تلك الفكرة السلطوية التي تمتلكها شخصية هواري بومدين. من هذا المنطلق

هل يمكن أن نعتبر اختيار اسم هواري بومدين هو تأشيرة القبول في المجتمع الجزائري الجديد أي مجتمع ما بعد الاستقلال؟ علما أن اسم محمد هو اسم عظيم لأنه اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ذكره القرآن الكريم أكثر من مرة، وهو شخصية إسلامية عظيمة، فهل التنكر للأصل قد يكون طريقة من الطرق التي بها يستطيع هواري بومدين التعايش مع الأنا الجزائرية الجديدة، أنا ما بعد الاستقلال؟ وهل يمكن أن نعتبر الأسماء مجرد واجهات فقط للهويات على حد قول الباحث لونيس بن علي؟

وحتى لا يتحمل الروائي فكرة القول نسبها إلى شخصية إدريس طالبي الذي حاول نقل هذه الحقيقة التاريخية بصدق عكس ما تناولته بعض كتب التاريخ، وحتى يتحمل مسؤوليةالكلام الخطير عندما وصف شخصية العقيد هواري بومدين بالحركي، وهو وصف في حقيقة الأمر مضاد لما تناولته كتب التاريخ، وكأن لسان الروائي يقول ويتساءل مرارً عن السبب الذي جعل المجتمع الجزائري يمجد شخصيته وتاريخه وكأن الروائي يقول لماذا نمجد دائما تواريخ الموتى، فيما يمجد غيرنا تواريخ الميلاد؟ لتكون هذه الأسئلة الثقافية المصرحة تارة والمضمرة تارة أخرى بمثابة نقطة قوة استعملها عمارة لخوص كأداة للتعبير عن رأيه الفكري والنقدي والإيديولوجي في قالب سردي تخيلي.

5. الذاكرة ومحاكمة التاريخ:

يتطلب عمل حفظ التاريخ وتدوينه عمل الذاكرة، فاستخدام هذه الأخيرة بدوره يتطلب تدخل التاريخ لأنه محرك البحث، وإذا كان دور الذاكرة اتجاه التاريخ هو الحفاظ على الحدث التاريخي من الضياع والتحريف، فإن التاريخ هو "امتياز توسيع الذاكرة الجماعية ونقدها وتفنيدها إذا انطوت على ذاتها وأغلقت أبوابها لتعيش داخل آلامها [...] في طريق النقد التاريخي تلتقي الذاكرة بمعنى العدالة، إذ كيف تكون الذاكرة سعيدة، إذا لم تكن في ذات الوقت عادلة؟"[26] وهنا كان واجب الذاكرة معالجة الماضي المثقل بالسقطات والهنات والهفوات، لأن التاريخ "كان وما يزال هنا وهناك في العالم

خاضعا للتلاعبات المدركة التي تمارسها الأنظمة السياسية المعادية للحقيقة"[27] ولقد سعى نص طير الليل إلى تصوير ما حدث في الجزائر في فترة زمنية متأخرة بكل ما تحمله هذه الفترة من تناقضات وأسئلة ضلت ولا تزال تؤرق القارئ، وما هي إلا عودة في حقيقة الأمر للبحث عن الحلول الممكنة لما يعيشه المجتمع الجزائري في الراهن. لذا عمدت الذات المستذكرة في رواية طير الليل إلى وصف حدث ماض ليس ببعيد عن تاريخ الجزائر المعاصر، لا بواسطة استذكاره كما وقع فحسب بل بواسطة استعادته أكثر من مرة، وأحيانًا تضيف إليه شيئا، وتكرار الروائي لهذه الأفعال ليس الغرض منه الزيادة في كم الحدث المستذكر أو حجمه بقدر ما هو تكرار في فعل الاستذكار أو التذكير في حد ذاته، كأن يعيد حادثة الكوكايين أكثر من مرة في ثنايا النص الروائي، معتبرًا إياها بالفضيحة، نظرا لتورط مجموعة من الشخصيات السياسية وإطارات الدولة، إذ "بدأ كل شيء حين احتجزت القوات البحرية 701 كيلو غرام من الكوكايين الصافية في باخرة في ميناء وهران في 29 ماي الماضي، تصل قيمتها إلى ثلاثين مليون يورو في السوق الأوروبي، كانت المخدرات مخبأة في شحنة من اللحوم المستوردة من البرازيل، وموجهة إلى مستورد اللحوم المجمدة في الأربعين من عمره، وقد تحول في فترة وجيزة من جزار إلى مقاول في العقارات وأحد أثرياء البلد، كان يهدي رحلات العمرة وشقق فاخرة لشخصيات نافذة في الدولة لتسهيل مصالحه"[28] وهذه الحادثة تكرر نفسها في كثير من الأحيان (ص 113/109/108)، وهذا مرتبط بدلالة موقف الروائي عمارة لخوص من فعل الذاكرة (التأكد من الفعل أم الشك؟)، فهو يريد أن يكرر الحادثة، ولا يريد التأكد على موضوع الكلام فحسب، بل يريد الذهاب إلى أبعد من ذلك وهو التأكد من صحته، مما جعلنا نتساءل: لماذا يتذكر الروائي هذا الحدث بالضبط؟ (حدث الكوكايين)؟ ما الذي يريده عمارة لخوص من وراء تذكره حادثة الكوكايين؟ لم اختار هذه الطريقة في التذكر بدلاً من طرائق أخرى؟ مما يترك للقارئ حرية التأويل واختيارالأجوبة المناسبة لهذه الأسئلة. وهي قضية تتعلق بالفضيحة التي تورط فيها كبار رجال السياسة، ولجوء

عمارة لخوص إليها، هو رجوع لخلق واقع خاص يقوم على التقابل بين الماضي والحاضر أو رجوع من أجل المقارنة بين تجربة العصر الذي عاشه المجتمع الجزائري فترة الاستعمار وما بعده والزمن الراهن المثقل بالانكسارات والإخفاقات، يقول الروائي على لسان المحامي إدريس طالبي: "الجزائر بلد الشهداء صارت بلدًا للكوكايين، يا حضارات!"[29] وهي معادلة متناقضة في نظر إدريس،تجمع بين جزائر القوة والتضحية،وجزائر الضعف والانحطاط،جزائر فساد الفرد الجزائري المتواطئ مع السلطة المتمركزة،وتذكر هذه الحادثة يعني التذكير بالمزالق والتناقضات التي شهدتها جزائر ما بعد الاستقلال، التي حاول بعض ساستها ورجالها نهب ثرواتها مستغلين الثورة لخلق الثروة، لتصبح الغاية فردية مصلحية لا مصلحة تهتم بجزائر أفضل، جزائر الغد المشرق. زيادة على هذا راح الروائي عن طريق الشخصية دائما يبحث عن ما تركه الإرهاب ومخلفاته المادية والبشرية في جزائر العشرية السوداء، يقول الروائي على لسان شخصية إدريس طالبي: "الخسائر البشرية تتراوح ما بين 150 ألف و200 ألف قتيل. أضف إلى ذلك آلاف المفقودين. أما الخسائر المادية فتصل إلى عشرين مليار دولار، فاتورة باهظة مرعبة"[30] فعمارة لخوص من خلال هذا المقطع لا يحاول سرد هذا الحدثالتاريخي للذاكرة الجزائرية الجريحة فقط، بل بإعادة إحيائها وبعثها من جديد حتى يتسنى لبعض الطبقات معرفتها، ونحن هنا لا نقصد الطبقات التي تعلم بقدر ما نقصد الطبقات التي لا تعلم، لأن "لابد وأن نحصي بدقة جثث الذين ماتوا في المعسكرات، وكلما قدمنا مثل هذه الإحصاءات السردية الحية فسوف يتذكرهم الناس"[31].والروائي انطلاقا من الإحصائيات التي قدمها لا يسعى إلى قول ما حدث ذات مرة على حد تعبير بول ريكور (**PaulRicœur**) فقط، بل راح يتساءل عن السّر الذي أسكت الدولة الجزائرية وبالتحديد السلطة عن هذه الجرائم الشنيعة مطالبا في الوقت نفسه بمحاكمة التاريخ، أي الأحداث التي تم طيّها "هل يمكن تنظيف الذاكرة من القتل الأعمى البشع بجرة قلم

أو مرسوم رئاسي؟ لم يقتنع المحامي أبدا بالرأي المتداول والقائل إن قانون السّلم والمصالحة الوطنية لعام 2005هو طي صفحة الماضي المثقلة بالدماء.

- ومتى كان طيُّ الصفحة هو الحلّ المناسب؟ ألا ينبغي، على الأقل قراءة الصفحة مرة واحدة قبل طيها نهائيا؟"[32].

فالذات المستذكرة من خلال المقطع ومن خلال الأسئلة الثقافية التي تطرحها، لا تحاول التذكير به فقط بقدر ما تدعو إلى إعادة قراءة التاريخ قراءة متفحصة، قراءة ومرجعة تدقق في ما جرى بالذات بغية مصالحة الذات والتوصل إلى حوار يبعث بالأمل و يفتح باب الحوار لكل الأطراف، وذلك من أجل تفادي تكرار أخطاء الماضي، لأنه "من المهم جدا أن تعرف الأجيال ما حدث حتى لا يضيع حق الضحايا الذين ذهبوا بفعل تقلبات التاريخ ومفاجآته"[33] وقد استطاع الروائي انطلاقا من المقاطع السابقة تفسير فترة العشرية السوداء تفسيرًا تخيليًا يشتبك فيه الحقيقي والتاريخي والواقعي ناسبًا دائما الأقوال إلى الشخصيات الروائية حتى يتجنب مسؤولية الكلام الذي يعّبر بطريقة أو بأخرى عن إيديولوجيا الكاتب.

6. خاتمة:

حاول الروائي عمارة لخوص عبر نص "طير الليل" أن يقتات من التاريخ ويقدم في الوقت نفسه نقدًا أو إعادة قراءة ما حصل للمجتمع الجزائري عبر حقبتين تاريخيتين مختلفتين زمنيا، متشابهتين مكانيًا وفعليًا وحدثيًا، مكن فيها القارئ من أن يعيد أو يسترجع ما تصدع في ذاكرته جراء الزمن واستطاع في الوقت نفسه إحياء ما طواه النسيان من قيم إنسانية، ليستدرجنا إلى الحياة الخفية لعصابات المال والسياسة والفساد تارة، وإلى اكتشاف جوانب من التاريخ الثوري التحرري المسكوت عنه تارة أخرى، من هنا كان هدفنا لايشترط الإجابة عن جميع الإشكالات المتعلقة بهذا النص الإبداعي، بقدر ما حاولنا التركيز على الجانب المتعلق بالذاكرة والتاريخ، لأن النص سيظل

مفتوحًا حتمًا على قراءات وتأويلات مختلفة أخرى هي ليست بنهائية، وما عرضناه في هذه الأوراق البحثية من قراءة نقدية ما هو إلا تقديم واحدة من تلك القراءات المحتملة والتي ستفتح لباحثين آخرين المجال للحديث عن آراء نقدية أخرى.

*** *** ***

7.الهوامش:

[1] عبد الرحيم جيران: الذاكرة في الحكي الروائي (الإتيان اللى الماضي من المستقبل)، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت (لبنان)، 2019، ص 142.

[2] ينظر المرجع نفسه، ص ص 142، 143.

[3] المرجع نفسه، ص 143.

[4] إدريس الخضراوي: سرديات الأمة، تخييل التاريخ و ثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة، إفريقيا الشرق، (د ط)، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص 92.

[5] عمارة لخوص: طير الليل، دار المتوسط،ط1، العراق، 2014، ص232.

[6] المصدرنفسه، ص110.

[7] ينظر وحيد بن بوعزيز ، جدل الثقافة (مقالات في الآخرية، الكولونيالية والديكولونيالية)، دار ميم،ط1، الجزائر، 2018، ص

[8] عمارة لخوص: طير الليل، ص 100.

[9] المصدر نفسه، ص 106.

[10] إدريس الخضراوي، سرديات الأمة، ص 99.

[11] عمارة لخوص: طير الليل، ص 96.

[12] المصدر نفسه، ص 96.

[13] حنة أرندت: في العنف، تر: إبراهيم الريس، دار الساقي،ط1، بيروت(لبنان)،1992، ص 31.

[14] المرجع نفسه، ص 32.

[15] وحيد بوعزيز: القانونية في الدراسات ما بعد الكولونيالية: السياق و الإزاحة والتحريف، مجلة اللغة والأدب، جامعةالجزائر2،ع21،ماي 2014، ص 398.

[16] سعدون نادية هناوي: السرد القابض على التاريخ (مباصرة في رواية التاريخ) ومعاينة في نماذج زوائية عربية وأجنبية، دار غيداء،ط1، عمان، 2019، ص 101.

[17] عمارة لخوص: طير الليل، ص 69.

[18] المصدر نفسه، ص 66.

[19] روبرت يانج: أساطير بيضاء، تر: أحمد محمود، المعهد القومي للترجمة،ط1، القاهرة (مصر)، 2003، ص 40.

[20] عمارة لخوص: طير الليل، ص 108.

[21] المصدر نفسه، ص 80.

[22] ينظر مصطفى الأشرف: الجزائر: الأمة و المجتمع، تر: حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب،(دط)، الجزائر، 1983، ص395.

[23] ينظر لونيس بن علي: الهوية الثقافيةمن الانغلاق الايديولوجي إلى الانفتاحالحواري: قراءة في رواية "كيف ترضع من الذئبة دون أنتعّضك " للروائي الجزائري "عمارة لخوص "، مجلة أفاق للعلوم، الجزائر،العدد 09، سبتمبر 2017، ص 178.

[24] عبد الله بن صفية: المّتخيل التّاريخي في الرواية الجزائرية جدليّة المرجع والمنجز السّردي رسالة دكتوراه،إشراف إسماعيل زردومي، كلية الأدب العربي والفنون، جامعة باتنة1، الجزائر، 2016-2017م، ص 274.

[25] عمارة لخوص: طير الليل، ص ص 96-97.

[26] جنات بلخن: السرد التاريخي عند بول ريكور منشورات الاختلاف،ط1، الجزائر، (دت)، ص128.

[27] جاك لوغوف: التاريخ و الذاكرة، تر: المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات،ط1، قطر، 2017، ص 10.

[28] عمارة لخوص: طير الليل، ص 108.

[29]المصدر نفسه، ص 108.

[30] المصدر نفسه، ص 245.

[31] بول ريكور: الذاكرة و السرد (حوارات)، تر: سمير مندي، كنوز المعرفة، ط 1، 2016، ص129.

[32] المرجع نفسه، ص 245.

[33] المرجع نفسه، ص 14.